بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون

وسورة النور

وسورة الفرقان

من بدايتها حتى الآية ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

بينت الآيات صفات المؤمنين الذى يرثون الفردوس، أعلى الجنة. وقد تكررت الصلاة فى الآية الثانية، وفى الآية التاسعة، وقال جل المفسرين إن لم يكن كلهم أن صفاتهم فى الثانية الخشوع فى الصلاة، وفى التاسعة المحافظة عليها من ناحية مواقيتها وإتمام أركانها، والعمل بآية العنكبوت ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾، ولكن من معانى الصلاة الدعاء، فيمكن حمل الآية الثانية على الخشوع فى الدعاء، والتاسعة على المحافظة على الصلاة، بما يشمل الخشوع فيها. وتكون الآيات بذلك جمعت بين الإيمان والعمل الصالح: الدعاء، الإعراض عن اللغو، إيتاء الزكاة، المحافظة على الفرج، وعدم ابتغاء ما وراء الحلال، وهو الزوجة أو ما ملكت الأيمان، والمحافظة على الأمانات والعهود، وعلى رأسها أمانة التكليف التى بينتها آية الأحزاب ـ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [٧٢]ـ وذلك

يجمع كل الحلال، ثم أخيراً المحافظة على الصلاة. وعن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال سيد قطب: [ولقد فصلت القول فى مسألة الرق فى الجزء الثانى من الظلال، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمى. واسترقاق أسرى الحرب نظام دولى. فما كان يمكن والإسلام مشتبك فى حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية فى طريقه أن يلغى هذا النظام من جانب واحد، فيصبح أسارى المسلمين رقيقًا عند أعدائه، بينما هو يحرر أسارى الأعداء.. فجفف الإسلام كل منابع الرق ـ عدا أسرى الحرب ـ إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولى للتعامل بالمثل فى مسألة الأسرى.

ومن هنا كان يجىء إلى المعسكر الإسلامى أسيرات، تقضى قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح. فأباح الإسلام سبلاً لتحرير الرقيق.

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كى لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة فى المخالطة الجنسية كما يقع فى زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق ـ هذه الفوضى التى لا يحبها الإسلام! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية. والأمة تصل إلى مرتبة الحرية بوسائل كثيرة.. إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها، وإذا أعتقها هو تطوعًا أو فى كفارة. وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها. وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها.. إلخ.

وعلى أية حال، فقد كان الاسترقاق فى الحرب ضرورة وقتية، هى ضرورة المعاملة بالمثل فى عالم كله يسترق الأسرى، ولم يكن جزءًا من النظام الاجتماعى فى الإسلام.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.. وراء الزوجات وملك اليمين، ولا زيادة بطريقة من الطرق. فيمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة، ووقع فى الحرمات، واعتدى على الأعراض التى لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد. وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى فى كلأ غير مباح، ويفسد البيت لأنه لا ضمان له ولا اطمئنان؛ وتفسد الجماعة لأن ذئابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك: وهذا كله هو الذى يتوقاه الإسلام]، وارجع لشرح الآية ٢٤ من سورة النساء.

***

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾

هذه الآيات تصف أصل تكوين الإنسان ومراحل عمره، فقد خلق الله آدم من طين، ومنه جاءت سلالته من ﴿ نُطْفَةً ﴾ من ماء الرجل تستقر فى قرار مكين وهو الرحم، ثم ﴿ عَلَقَةً ﴾ بويضة مخصبة بخلية الذكر تتعلق بجدار الرحم، ثم ﴿ مُضْغَةً ﴾ قطعة لحم قدر ما يمضغ، ولها شكل الطعام الذى أثرت فيه الضروس وهى تمضغه، وذلك هو عموده الفقرى، ثم أصبحت المضغة عظامًا، كساها رب العالمين لحمًا، ثم خرجت مولودًا، مخلوقًا آخرًا عن الطين أو النطفة، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾.

***

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ سبع سموات ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ فقد قال بعض المتفلسفين: إن الله خلق الكون ثم تركه، وقال آخرون: إن الله يعلم بالكليات ولا يعلم بالجزئيات، فجاءت الآية تبين الحق فى ذلك ـ وجاء ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، كما جاء ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس: ٦١] ـ و﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ بقدر ما قضت الحكمة الإلهية ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ ليقوم بالدور الذى اقتضته الحكمة الإلهية، والتى يمكنها منعه من البداية، أو رفعه بعد نزوله ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فبدون الماء ما نبت الزرع ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ كذلك أنشأ رب العالمين شجرة الزيتون، التى تخرج من جبل الطور فى سيناء، يستخرج الناس منها الدهن والزيت للآكلين. تحديد طور سيناء لخروج شجرة الزيتون له حكمة لا نعلمها، خاصة إذا تدبرنا فى آية سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ .

* * *

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ يخرج من بين ما فى بطونها من طعام وشراب ودم وغيره لبنًا خالصًا سائغ الطعم للشاربين، كما تنتفعون بلحومها وجلودها وأوبارها، وتحملكم وأثقالكم فى تنقلاتكم وأسفاركم، كذلك تحملكم السفن التى تجرى فى البحار والأنهار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ بعد أن بينت الآيات قدرة الله الواحد الأحد، ثم بينت نعمه المادية، انتقلت لنعمه الروحية. أرسل الله نوحًا (عليه السلام) بدعوة الرسل: اعبدوا الله وحده، هو خالقكم وهو ربكم، فاعترض وجهاء قومه على ذلك الرجل الذى يريدهم أن يتخلوا عن معتقداتهم وممارساتهم التى أوصلتهم لما هم فيه من منزلة، فقالوا: ما يريد ذلك الرجل إلا أن يترأس عليكم، ولو شاء الله لأنزل علينا ملائكة ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ فما نوح إلا رجل مصاب فى عقله ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

* * *

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾

قال نوح (عليه السلام): رب انصرنى بالحق الذى كذبونى عليه، فأوحى الله إليه أن يصنع سفينة برعاية الله وحفظه وإلهامه، حتى إذا جاء أمرنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ تعددت أقوال المفسرين، منها فار الماء من التنور الذى يخبز العيش، أو الموقد أو الفرن، وقيل سطح الأرض ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فأدخل فى السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فأدخل من كل أمم المخلوقات حولك زوجين اثنين، وأدخل أهلك إلا من كفر، وسبق عليه قولى ألا يدخل معك لينجو ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا ترجونى فى الكفار؛ لأنهم قد ظلموا أنفسهم فحق عليهم الغرق ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ استقر أمركم فى السفينة، فاحمدوا الله الذى نجاكم ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم ادعو ربك ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾ إن فى قصة نوح لآيات لأولى الألباب، ابتلى فيها رب العالمين نوحًا وقومه ـ وهو الذى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

***

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾

تتكرر هنا قصة القرن، أى القوم، الكافرين. يُرسل الله لهم رسولاً بدعوة الرسل التى لاتتغير: اعبدوا الله وحده. فيعترض الوجهاء الذين يريدون استمرار وجاهتهم، والذين يرفضون أن يكون الناس كلهم عبيدًا متساوين أمام إله واحد، ويرفضون أن يحاسبهم ذلك الإله على أعمالهم، سواء فى الدنيا، أو ببعثهم لحساب الآخرة، ويرفضون رسولهم، فتارة يقول بعضهم إن ذلك الرسول مجنون، وتارة إنه إنما يريد أن يتفضل على القوم ويرأسهم،

وتارة هو كذاب ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ كيف تطيعون بشراً مثلكم؟! إن ما يقوله كلاماً غير واقعي ولا عملي، كيف تبعثون بعد الموت؟ دعونا نستمتع بحياتنا الدنيا، ودعكم من ذلك الكذاب، وفي نهاية المطاف يستنجد الرسول بخالقه الذي أرسله، وهل له غيره يستنصر به، ويستنصر به المؤمنون؟ فينزل الله عذاب الاستئصال بأولئك الكافرين فيهلكوا ولا تبقى منهم إلا العبرة، وما سيلاقونه يوم يبعثون. تبقى هنا مسألة: من هم هؤلاء القوم؟ هل هم عاد قوم هود (ﷺ)، كما قال أكثر المفسرين لأن ذكرهم جاء بعد نوح (ﷺ)؟ أم ثمود قوم صالح (ﷺ) فهو أيضًا بعد نوح (ﷺ)؟ ولكن هل هناك فرق في الاعتبار، سواء كانوا هؤلاء أم هؤلاء أم غيرهم؟ ثم جاءت الآيات ٤٢ إلى ٤٤ لتبين استمرار العبرة مع أقوام آخرين، تتوالى إليهم رسلهم، فكذبوهم، فأصبح أولئك الأقوام أحاديثًا تروى، فسحقًا لهم وبعدا.

***

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) ﴾

ربما لم يجئ رسول بآيات معجزة مثلما جاء كلٌّ من موسى (ﷺ)، وعيسى (ﷺ)، وللأسف لم تكن الاستجابة على قدر المعجزات. ففرعون وبطانته استكبروا حتى أغرقهم استكبارهم وجحودهم، ومعهم جنودهم وهم يسعون بغرور وعناد خلف موسى (ﷺ) ومن آمن معه ـ وهم كما تقول الآية ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [يونس: ٨٣] ـ وحتى تلك الذرية سرعان ما كفر بعضها وعبد العجل ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وبرغم معجزات موسى (ﷺ)، وبرغم التوراة، الكتاب المنير كما وصفه القرآن، عصى بنو إسرائيل، وكفروا وقتلوا الأنبياء، كما ذكر القرآن وكما ذكر العهد القديم من الكتاب المقدس، حتى جاءهم عيسى (ﷺ) بمعجزاته البينة، فحاولوا قتله، ورموا أمه العذراء البتول بالزنا[1].

***

(١) جاء في سفر ملاخي، وهو آخر أسفار العهد القديم تحت عنوان تحذير الكهنة: ولكنكم انحرفتهم عن الطريق المستقيم وأعثرتم بتعاليمكم الكثيرين ونقضتم عهدي مع النسل الكهنوتي، يقول الرب القدير، في ذلك أحقركم وأذلكم أمام جميع الناس، لإنكم لم تطيعوا طرقي وحابيتم في تطبيق شريعتي ـ ٢: ٨، ٩.

وقد قال عنهم عيسى (ﷺ) في الإنجيل: يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء! ووصف أحبارهم بأنهم حيات أولاد أفاعي!

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾

وأنجبت مريم العذراء البتول عيسى (ﷺ) بدون أب فى معجزة بينة، تلتها معجزات عديدة ـ فما كان من بنى إسرائيل إلا أن كفروا به إلا قليلاً منهم ـ وأسكنا مريم وابنها عيسى (ﷺ) فى مكان مرتفع به ماء جار ظاهر للعيون ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ الخطاب للرسل ولمن تبعهم من المؤمنين، كلوا من طيبات الرزق، ولا تحرموا إلا ما حرمه الله عليكم، ولا تكلفوا أنفسكم مالا طاقة لها به، ولا تحتقروا أجسادكم ولا تعذبوها، واعملوا صالحًا فإنى عليم بما تفعلون ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ إن المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله أمة واحدة، فاتقوا أن تعصونى ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ فتفرقت أقوامهم فى أمر دينهم قطعًا وفرقًا وأحزابًا ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ جهلاً وتعصبًا واستكبارًا ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ دعهم يا محمد فى لهوهم وجهالتهم حتى يأتيهم العذاب، أيظنون أن متاع الدنيا مهما زاد خير لهم، بل هو استدراج منا لهم، يزدادون به إثمًا، ويزداد عقابهم وهم لا يشعرون.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾

إن الذين يخشون أن يعصوا الله وأن يُقصروا فى حمل أمانة التكليف، ويخشون غضب الله وعقابه فى الدنيا والآخرة، والذين يؤمنون بآيات ربهم، ولا يشركون به شيئًا، والذين يعملون الصالحات، ويبذلون أنفسهم فى سبيل الله، وقلوبهم تجيش بين الخوف والرجاء من يوم رجوعهم لربهم للحساب، أولئك يسارعون فى فعل الخيرات، ويسبقون من هم عن كل ما سبق غافلون، وهم إلى خيرات الدنيا والآخرة سابقون.

* * *

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾

لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولديه كتاب حق عن أعمال كل نفس، لا يزيد ولا ينقص فيها شيئًا، ولكن يتغافل كثير من الناس عن الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ تعددت الأقوال فى تفسيرها، ربما كان أهمها قول قتادة ومجاهد: [لهم خطايا لابد أن يعملوها من دون الحق]، وقال الحسن: [لهم أعمال رديئة لم يعملوها، لابد أن يعملوها دون أعمال المؤمنين فيدخلوا بها النار]، ويُحتمل أن يكون المقصود ظلم الخلق مع الكفر بالخالق، كما ذكر الماوردى، حتى إذا أنزلنا العذاب بالمترفين الغارقين فى متاع الدنيا إذا بهم ﴿يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون ويستغيثون فيجيئهم الرد ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ يوم إنزال العذاب بهم، سواء فى الدنيا أو يوم الحساب فى الآخرة ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ ليس هناك من يمنع عنكم العذاب وينتصر لكم منا، فقد كنتم تستكبرون عن سماع آياتى، وكنتم ترجعون عنها، رجوعًا ماديًا بالابتعاد بأجسادكم، ورجوعًا معنويًا بتعطيل فطركم ومداركم كأنكم صغار جهلاء لا توعون، وتهجرون القرآن لتتفاخروا فى سمركم حول الكعبة بقولكم إنكم أهل البيت الحرام وحفظته وحجابه.

***

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾

ألا يتدبر هؤلاء القوم القرآن؟ أليس القرآن موافقًا لملة أبيهم إبراهيم التى آمن بها آباؤهم الأولون؟ أينكرون صدق محمد الذى لقبوه بالأمين؟ بل يجحدون كما جحدت الأقوام الكافرة قبلهم عندما افترت على رسلها ورمتهم بالجنون، وما فعلوا ذلك إلا لكراهيتهم للحق ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وبالكبر وعناد أولئك الغافلين، لقد جاءهم من الله ما يرفع شأنهم فى الدنيا والآخرة لو اتبعوه، ولكنهم أعرضوا واتبعوا أهواءهم الفاسدة ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أم أنك يا محمد تطلب منهم أجرًا على اتباع

الدعوة؟! ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فالذى يؤجرك ويؤجرهم هو الله خير الرازقين ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣)﴾ ولكن من يريد علوّا فى الأرض لا يريد مساواة مع بقية الناس فى عالم له رب واحد ـ قوانينه العليا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]، و «خير الناس خيرهم للناس» رواه الطبرانى و«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخارى ومسلم ـ ولهذا هم مائلون منحرفون ناكبون عن صراط العزيز الحميد ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يلجأون لله له وحده إذا مسهم الضر، فإذا رفع الله عنهم البلاء، رجعوا ثانيًا إلى طغيانهم، يتخبطون ويتعامون عن الحق.

***

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾

ابتلى الله أولئك الناس بالعذاب، فما خشعوا لربهم وما تضرعوا ليرفع العذاب عنهم، حتى زاد الله من شدة العذاب، فإذا بهم مأخوذون، لا يعرفون ماذا يعملون. أفلا يجدر بأولى الألباب أن يشكروا لربهم ما منحهم من نعم السمع والأبصار والأفئدة؟ وأن يعبدوه؟ فهو الذى خلقكم ونشركم فى الأرض، وهو الذى يحيى ويميت، وهو الذى يقلب الليل والنهار لينظم حياتكم، وهو الذى إليه ترجعون.

***

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)﴾

بعد كل هذه النعم التى أسبغها الله على عباده ﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴾ لرسلهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ نحن لا نصدق البعث والحساب! لقد وعدنا الرسول كما وعدوا آباءنا من قبل باليوم الآخر، والحقيقة أن هذا مجرد أكاذيب مسطورة فى كتب الأولين. ثم أمر الله محمدًا (ﷺ) أن يسأل قومه ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) ﴾ سيقولون على الفور هى لله، فقل لهم يا محمد: فلم تشركون به؟ ألا تدركون أن الله خالق الكون هو أيضًا رب الكون الذى يستحق العبادة وحده؟ ثم أشهدهم يا محمد ﴿ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فتكون الإجابة التلقائية الله هو رب السموات ورب العرش، فحذرهم يا محمد: ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخشونه وتمتثلون لأوامره؟! ثم أشهدهم يا محمد ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ من بيده ملك كل الأكوان بما فيها، وهو يغيث ويحمى المستجير ولا أحد يمكنه أن يغيث أو يحمى منه، إن كنتم تعلمون الرد فأجيبونى ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ فكيف تخدعون عن توحيده كأنكم مسحورون. . إنا أتيناهم بالدين الحق الذى يفلح من يتبعه، ويخسر من يرفضه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

* * *

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

لم يتخذ الله ولدًا، وما كان معه آلهة أخرى، وإلا لأراد كل إله أن يمارس ألوهيته على الآخرين، سبحان الله عما يصفون، يعلم الغيب والشهادة، وتعالى عما يشركون ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعلم الله رسوله أن يدعو قائلاً: يا رب، إذا أوقعت العذاب بالمشركين فلا تجعلنا ضمن الظالمين ـ جاء فى الحديث «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون» رواه الترمذى، كذلك أجاب الرسول (ﷺ) أم سلمة عندما سألته: أنهلك وفينا الصالحون؟ «نعم إذا كثر الخبث» رواه البخارى ومسلم ـ فأجابه ربه ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ﴾ فاستمر فى دعوتك ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ قابل ما فعلوه معك

والمسلمين من تكذيب وإيذاء ومكر بالعفو والتسامح ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ما يتهكمون به عليك، ويسخرون به من رسالتك، ثم علَّم الله رسوله أن يستعيذ به ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

* * *

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾

حتى إذا جاء أجل أحد أولئك الكافرين، قال رب ارجعنى للدنيا لعلى أعمل صالحًا، وما ذلك إلا كلام، وبينه وبين الدنيا حاجز إلى يوم البعث. فإذا نفخ الملك فى الصور للبعث ليوم الحساب، فانقطعت القرابات والأنساب والأسباب الدنيوية ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وذلك أحد مشاهد أو أحوال الناس يوم الحساب، فهناك حال آخر هم فيه ـ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧] ـ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالإيمان والعمل الصالح ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفى المقابل ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾ مشوهون، قبيحو المنظر والمنقلب.

* * *

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾

ألم تبلغكم آياتى؟ ألم تسمعوها وتكذبوا بها؟ فقالوا مستعطفين متذللين بعد أن كانوا متكبرين جاحدين ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ ملكتنا وسيطرت علينا أسوء عاقبتنا باتباعنا الشهوات ومتع الدنيا فضللنا طريق الصواب ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى الكفر والمعاصى ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ نستحق العذاب. قال تعالى: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ انزجروا

أذلاء مهانين، فلقد كان المؤمنون بى وبرسلى وكتبى يدعون ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وكنتم تسخرون منهم وتضحكون، حتى أغفلكم تكبركم عليهم عن ذكرى، ولقد جزيتهم اليوم بصبرهم واستمساكهم بدينهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

***

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ سؤال استصغار لحياتهم على الأرض بالتباين مع طول الحياة الآخرة وحالهم فيها؛ فى جنات النعيم أو فى نار الجحيم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ ألهذا اليوم أو بعض اليوم بعتم آخراكم!

جاءهم صوت الحق.

﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ووالله إن أمر الدنيا لعبث لو لم يكن هناك بعث وحساب وحياة آخرة بموازين الحق...

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

فسبحان الله، الملك الحق، عن شركائهم وعن إلحادهم، فما غركم بربكم الكريم؟ [الانفطار: ٧، ٨]، ومن كرمه أنه سيحاسبك فيستمع لك، فلو كان لديك برهان على إلهك فسيعفو عنك! سبحانك وغفرانك ربنا، ورحمتك بنا، يا واحد يا أحد، وأنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت، إنا كنا من الظالمين!.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ﴾

سورة النور أنزلها الله وأوجب أحكامها، وأنزل فيها آيات بينات ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

***

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

ألفاظ الآية الثانية تبين أن عقاب الزانى والزانية الجلد مائة جلدة، وأن يشهد الجلد طائفة من المؤمنين: رجل فأكثر، وقيل: اثنان فأكثر، وقيل: ثلاثة، وقيل: أربعة، وقيل عشرة فأكثر، وقيل ذلك أبلغ فى الزجر وأردع عن الفعل. واجتمع المفسرون على أن المقصود بالزانية والزانى فى الآية من لم يحصن، أى لم يتزوج، أما المحصن فعقابه الرجم. أى أن المفسرين خصصوا الزانية والزانى فى الآية بمن لم يتزوج، وقالوا بأن الرسول (ﷺ) أمر بالرجم فى نحو ثلاث حالات، وقالوا: إن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقى حكمها معمولاً به. وليس فى القرآن آية أخرى ذات حكم بحدّ نسخت تلاوتها وبقى حكمها، فهذا أمر وحيد فريد. وقال أحاد: إنه لا يمكن لحديث ظنى الثبوت أن يخصص أو ينسخ نصّا قرآنيّا قطعى الثبوت، وتساءلوا كيف يمكن تنصيف عقوبة الرجم على الأمة؟ وقال

شلتوت فى كتابه *الإسلام عقيدة وشريعة* أن كثيراً من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد، وقال: [عقوبة الاعتداء على الأعراض بالزنا أو القذف: وقد جاء فى الزنا قوله تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥، ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [النور: ٢، ٣].

وينبغى أن يعلم هنا:

أولا: أن كثيرا من العلماء يرى أن ما تضمنته آية النساء كان هو العقوبة أولا لجريمة الزنا، ثم جاءت عقوبة الجلد المذكورة فى آية النور بدلا منها.

ونقل الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى، وهو ممن لا يرون وقوع النسخ فى القرآن، وأن آية النور، وهى قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ خاصة بجريمة الرجل مع المرأة وعقوبتها الجلد؛ وبذلك يكون القرآن فى نظر أبى مسلم الأصفهانى، قد استكمل عقوبة الجناية على العرض فى جهاتها الثلاث، وتكون الآيات كلها محكمة لا نسخ فى شىء منها.

ثانيا: أن الفقهاء حملوا آية النور على غير المحصن، وبينوا فى كتبهم شروط الإحصان ومصادرها. أما المحصن فقد قرروا أن عقوبته الرجم، أخذا من عمل الرسول، ومن أحاديث وردت فى هذا الشأن.

وقد أنكر الخوارج الرجم، واحتجوا بوجوه أوردها الفخر الرازى فى تفسيره. ولعلهم أنكروا أنه تشريع عام دائم، واعتبروا أن ما حصل من الرسول كان على سبيل السياسة والتعزير].

قال محمد الغزالى: [إن سورة النور تحدثت عن العلاقة بين الرجال والنساء، وذكرت عقوبات بعض الجرائم الجنسية، وشرحت آداب نظر كل جنس إلى الآخر، وحددت الزينات المباحة والمحظورة، كما أوجبت الاستئذان قبل دخول البيوت وداخل كل بيت. . . . وهذه التنظيمات أقامت المجتمع الإسلامى على العفة والطهْر، وأقامت سياجًا متينًا حول المحارم

التى يخاف وقوعها، فكان لها الأثر فى صون الأمة من الآثام وتحصينها من الرذائل، ومن المشاهد أن الحضارة المعاصرة تجرأت على المناكر (المنكرات)، ومهدت لها الطريق، ولم تزل تواقعها حتى استباحتها، والزنا الآن لا يسمى زنا، بل يسمى حبًا أو صداقة. وقد تدحرجت الأديان عن مكانتها فى التربية، وفسحت الطريق أمام مذاهب لا إيمان لها ولا شرف، والجهود الاستعمارية مبذولة كى ينتهى الإسلام إلى هذا المصير... ووسائل الإعلام المختلفة تتسابق إلى بث الفتنة داخل البيوت!!]. وحرمت الآية الثانية على المؤمنين من الزواج من الزناة بعد أن فكر بعض المهاجرين فى الزواج من بغايا فى المدينة.

***

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

من يرم المحصنات بالزنا، ولا يشهد على قوله أربعة شهداء، فعقابه ثمانون جلدة، وتسقط عدالته فلا تقبل شهادته، وهو من الفاسقين، إلا من تاب وأصلح فإن ﴿ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. تعددت أقوال المفسرين والفقهاء فى الاستثناء، هل يعود على الفسق فقط؟ أم على الشهادة أيضا فتقبل شهادته بعد إسقاطها؟ قال أبو حنيفة بالأول، وقال مالك والشافعى وأحمد بالثانى.

***

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يقذفون ﴿ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ أى زوجاتهم ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ ﴾ لا يوجد من يشهد معهم ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ يشهد الزوج بالله أربع مرات إنه لمن الصادقين فى اتهامه لزوجته، ويذكر فى المرة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذبًا ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ ويدفع عن الزوجة أن يقام عليها الحد أن تشهد أربع مرات بالله أنه كاذب، وتذكر فى المرة الخامسة أنها تستحق غضب الله عليها إن كان زوجها صادقًا.

وقد تركت الآية جواب ﴿لَوْلَا﴾ للدلالة على أهميته، وكما قال الزمخشرى: [رب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به] والمقصود لعاجلكم بالعقوبة وفضح أهل المنكر، ولكنه يمهلكم لتتوبوا وتنوبوا إليه.

وقد مارست أوروبا ـ حتى بضعة قرون مضت ـ تعريض المرأة المشكوك فى زناها لتجربة تعذيب جسدية[1]، إن نجت منها ثبتت براءتها، ولذلك أساس من العهد القديم[2].

***

(١) كانت هناك عدة طرق لاختبار صدق المرأة المشكوك فى زناها فى أوروبا المسيحية، حتى بداية عصر النهضة، منها:

السير على شفرات ساخنة لدرجة الاحمرار ـ أو الإمساك بالحديد الساخن لدرجة الاحمرار ـ أو الغمس الكامل فى ماء مثلج ـ أو إخراج حجر من مرجل به ماء مغلى.

وكان مسموحًا لرجال العصور الوسطى بالاحتفاظ بزوجاتهم الشرعية، بالإضافة لمحظيات وعشيقات وبغايا دون عقاب.

(٢) جاء تحت عنوان **شريعة الشك بارتكاب الزنى**:

وقال الرب لموسى: «أوص بنى إسرائيل وقل لهم: إذا غوت امرأة رجل وخانته بزناها مع رجل آخر، وخفى الأمر على زوجها، ولم يقم عليها دليل ولم يقبض عليها متلبسة بزناها. وإذا اعترت زوجها الغيرة وارتاب بزوجته وكانت نجسة، أو غار على امرأته مع أنها طاهرة. فليحضر الرجل امرأته إلى الكاهن، ويأتى معه بقربانها عشر الإيفة (نحو لترين ونصف اللتر) من دقيق الشعير. لا يصب عليه زيتا، ولا يضع عليه لبانا، لأنه تقدمة غيرة، تقدمة تذكرة تذكر بذنب. فيجعل الكاهن الزوجة تمثل أمام الرب، ثم يأخذ ماء مقدسا فى إناء من خزف ويلتقط بعض غبار أرض المسكن ويضعه فى الماء. ويكشف رأس الزوجة، ويضع فى يديها تقدمة التذكار التى هى تقدمة الغيرة، ويحمل الكاهن بيده ماء اللعنة المر. ويستحلف الكاهن المرأة قائلا لها: إن كان رجل آخر لم يضاجعك، ولم تخونى زوجك، فأنت بريئة من ماء اللعنة المر هذا. ولكن إن كنت قد خنت زوجك وتنجست بمضاجعة رجل غيره، فليجعل الرب لعنة شعبك عليك، فيتبرأون منك عندما يجعل الرب فخذك يذوى وبطنك يتورم. وليدخل ماء اللعنة هذا فى أحشائك ليسبب ورمًا لبطنك، وليذو فخذك». فتقول المرأة: «آمين. آمين».

امتحان المرأة المشكوك فى زناها:

ثم يُدون الكاهن هذه اللعنات فى درج ويمحوها بالماء المر؛ ويسقى المرأة ماء اللعنة المر الذى محا به اللعنات فيدخل فيها ماء اللعنة ليسبب لها آلام المرارة. ثم يأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة، ويرجحها أمام الرب، ثم يقدمها إلى المذبح. ويتناول ملء قبضته منها ويحرقه على المذبح، وبعد ذلك يسقى المرأة الماء. فإن كانت المرأة قد تنجست وخانت زوجها، فإنها حين تشرب الماء الجالب اللعنة يسبب لها آلام مرارة، فيتورم بطنها ويذوى فخذها، وتصبح المرأة لعنة فى وسط شعبها. أما إن كانت بريئة طاهرة، فإنها تتبرأ ولا تصبح عاقرًا. =

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾

(الإفك) هو أشر الكذب وأكبره، وقصة الإفك هى ما قاله المنافقون عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) بنت الصديق (رضي الله عنه) بعد غزوة بنى المصطلق عندما تأخرت عن الجيش الذى رحل، ووجدها صفوان السلمى (رضي الله عنه)، فأركبها ناقته ولحقا بالجيش وقد روى البخارى ومسلم، وغيرهما، القصة عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة، ومختصرها كالتالى: [وكان الذى تولى الإفك عبد الله ابن أبى، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشىء من ذلك، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ حتى خرجت بعد ما نقهْتُ، وخرجت مع أم مسطح قبَل المناصع وهو متبرزنا (لقضاء الحاجة) ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح ـ (وهى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق) ـ قبل بيتى حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أم مسطح فى مرْطها، فقالت: تَعس مسطح، فقلت أتسبّين رجلاً قد شهد بدرًا؟ فقالت: أىْ هَنَتَاهُ (ياهذه)، أولم تسمعى ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضى، فلما رجعت إلى منزلى ودخل علىّ رسول الله (ﷺ) ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لى أن آتى أبوىّ؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما، فجئت أبوىّ، فقلت لأمى: أى أماه، ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أى بُنَيَّة هوّنى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت قلت: سبحان الله، أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله (ﷺ)؟ قالت نعم، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدخل على أبو بكر وأنا أبكى، فقال لأمى: ما يبكيها؟ قالت: لم تكن علمت ما قيل لها، فأكبّ يبكى، فبكى ساعة، ثم قال: اسكتى يا بُنية، فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من

= إذا، هذه هى شريعة الغيرة التى تطبقونها إذا خانت امرأة زوجها وتنجست. أو إذا اعترت الغيرة رجلا، فغار على زوجته، فعليه أن يأتى بالمرأة أمام الرب ويمارس عليها الكاهن كل هذه الشعائر. ولا يعاقب الرجل إذا أصاب الضرر زوجته المذنبة، أما هى فتحمل قصاص خطيئتها» ـ سفر العدد الإصحاح ٥: ١١-٣١.

الأنصار فأذنتُ لها فجلست تبكى معى، قالت فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله (ﷺ) ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، فتشهّد رسول الله (ﷺ) حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممْت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه»، فلما قضى رسول الله (ﷺ) مقالته قَلَص دمعى حتى ما أحُسُّ منه دمعة، قلت لأبى: أجب عنى رسول الله فيما قال، قال: والله ما أدرى ما أقول، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدّقوا به، فإن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم أنى بريئة، لا تصدّقونى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدّقُنى، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة، وأن الله سيبرئنى ببراءتى، ولكنى والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يُتْلَى، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها، قالت والله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء (المعاناة) عند الوحى حتى إنه ليتحدّر منه مثلُ الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه، قالت: فلما سُرِّى عن رسول الله وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشرى يا عائشة، إن الله قد برأك، فقالت لى أمى: قومى إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذى أنزل براءتى، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا فى براءتى، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال لا أنزعها منه أبدًا].

وقد كلف حديث الإفك عائلة أبى بكر الصديق (رضي الله عنه) حياة زوجه أم عائشة (رضي الله عنها)، إذ لم تلبث سوى شهوراً قليلة ثم ماتت متأثرة بما أصابها من بدء قول الإفك حتى نزول براءة عائشة (رضي الله عنها).

ولقد عاش صفوان بعد ذلك مجاهداً صابراً فى سبيل الله، نقى السيرة والسريرة حتى استشهد فى سبيل الله فى زمن عمر (رضي الله عنه) وقيل بل فى زمن معاوية، بينما عاشت الصديقة

ينت الصديق (رضي الله عنها) بعد الرسول (ﷺ) بضعة عقود، متبتلة لله، تعلم المسلمين حديث رسول الله (ﷺ)، وتصحح للصحابة ما قد ينسونه، وتعلم المسلمين التفسير والفقه، تتصدق بكل ما يأتيها حتى أن ابن اختها عبد الله قال لأحجرن على عائشة!

* * *

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾

هلا إذا سمعتم قول الإفك ظن المؤمنون ظنًا حسنًا، وقالوا نحن لا نفعل مثل ذلك، ولا يفعله الرجل الصالح صفوان، ولا تفعله أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) التى اختارها الله زوجة لخاتم النبيين، إن ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾.

* * *

﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) ﴾

هلاَّ أحضر القائلون بالاتهام أربعة شهود يشهدون على أنهم رأوا ما ادعوا! فإذا لم يحضروا الشهداء الأربعة، فهم عند الله فى عداد الكاذبين الذين يرمون المحصنات، ولكن الله يَمُنّ على عباده بالرحمة والمغفرة، ولولا ذلك لنزل بكم عذاب عظيم بسبب خوضكم فى هذا الإفك، إذ ترددد الستتكم، وتقول أفواهكم ما لا تعلمه، وتحسبونه كلامًا يقال، وهو ذنب ﴿ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾

ولو أنكم حين سمعتم حديث الإفك قلتم ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ بدون علم ولا برهان فى حق العفيفات الطاهرات، فكيف إذا كان فى حق عائشة بنت الصديق (رضي الله عنها) والتى

اختارها الله زوجة لرسوله ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ قال الألوسى : [تعجب ممن تفوه به (بالإفك) والمراد تنزيه الله تعالى شأنه من أن يصم نبيه (ﷺ) ويشينه ، فإن فجور الزوجة وصمة فى الزوج تنفر عنه القلب وتمنع عن اتباعه النفوس] ﴿ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ هذا كذب كبير ، فى النوع وفى الحجم ، ينهاكم الله أن تعودوا للخوض فى أعراض الناس إن اعتبرتم أنفسكم من المؤمنين ، ويبين الله لكم أحكامه فى قذف النساء ، وهو ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أما الذين يحبون أن تتفشى المعاصى والآثام فى المجتمعات المؤمنة ، فلينتظروا عذاب ربهم فى الدنيا والآخرة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تركت الآية الإجابة ، ليتحسبها المؤمنون ، كمن يهدد أو يلوم آخر بأن يقول له : لولا قرابتك ، أو لولا صداقتك ، أو لولا سابق فضلك على ، ولا يكمل قوله ، ومفهوم أن المقصود أن يقول به لفعلت بك كذا وكذا . قال الخطيب الشربينى : [قال ابن عباس : الخطاب لحسان ومسطح وحمنة (الذين تناقلوا الإفك)] .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾

يذكر الله الإنسان دائمًا أن الشيطان له عدو مبين ﴿ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وهى كبائر الذنوب ﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ كل ما ينكره شرع الله ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بما أودعه فى فطرة الإنسان ، وما حباه من مدارك ، وبعفوه وتوبته الدائمين لمن تاب قبل أجله ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ ما تطهر من ذنوبه أحد ، ولكن الله يطهر نفوس من يشاء من عباده ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

* * *

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

نزلت هذه الآية فى أبى بكر (رضي الله عنه) حين أقسم أن يتوقف عن إنفاقه على مسطح بعد أن خاض مع الخائضين فى قول الإفك ، فقال تعالى ﴿ وَلا يَأْتَلِ ﴾ لا يحلف ﴿ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ مثل أبى بكر (رضي الله عنه) على ألا يساعدوا ﴿ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ ﴾ مثل مسطح قريبه ،

فيقطع عنه النفقة التى كان يجريها عليه، ولا يقسم الأغنياء على منع العطاء عن المساكين والمهاجرين فى سبيل الله إذا ما أساءوا ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عما يبدر من أولئك فى حقهم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وجاء فى الحديث «أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها»، منها: «أن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى» رواه رُزَين.

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذفون العفيفات المصونات ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ السليمات الصدور، المنصرفات عن التفكير فيما يغضب الله ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر، جزاء هؤلاء المفترين لعنة الله وغضبه عليهم دنيا وآخرة، و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم الحساب ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يومئذ ينالون جزاء قذف المحصنات ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أن وعده ووعيده حق ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ قال الماتريدى: [قال بعضهم (ابن عباس) الخبيثات من الكلمات والقول للخبيثين من الناس والخبيثون من الناس للخبيثات من الكلمات والقول، والطيبات من الكلمات للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات. وقال مجاهد: هو القول السيئ والقول الحسن، فالحسن للمؤمنين والسيئ للكافرين، ثم قال ﴿أُولَئِكَ﴾ يعنى: عائشة وصفوان ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ مما يقول أولئك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقال بعضهم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، لكن هذا يتوجه إلى النكاح شرعًا ووجودًا، (أى نهى الشرع الطيبون والطيبات عند الزواج إلا من الطيبات والطيبين، ووجودًا بمعنى أنه لا يصبر على خبث الزوجة إلا زوج خبيث، ولا يصبر على خبث الزوج إلا زوجة خبيثة)]، ويمكن القول بأن الآية تحث الطيبين أن يقترنوا بالطيبات، والطيبات أن يقترن بالطيبين، وهم مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات، ولهم مغفرة ورزق كريم.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

اهتم الإسلام بالآداب العامة ولم يكتف بمراعاة الحقوق، بل نص على مراعاة الخواطر والأحاسيس والمشاعر المرهفة، فتجده، على سبيل المثال، يأمر بإعطاء من حضر تقسيم التركة جبرًا لخاطره، وتجده يأمر بزيارة المريض، وبتبادل الهدايا، وبالشفاعة الحسنة فى الدنيا، وإعانة العاجز، وأن يبتسم المرء فى وجه أخيه، ونهى أن يدخل رب العائلة بيته بطعام وشراب أمام جاره المحروم، إلا أن يعطيه منه نصيبًا، ونهى من أكل ثومًا أو بصلاً أن يدخل المسجد فيؤذى المصلين برائحته، مع ما أكد وكرر من أهمية الصلاة فى المساجد، ونهى أن يتسارر اثنان فى وجود ثالث مما يسبب له إحراج، وأمر بإعطاء المحتاج قبل أن يُحرج بالسؤال، خاصة يوم العيد، ونصح بتخفيف أوقات الزيارات حتى لا يُحرج المُضيف. وهنا ترشدنا الآيات لبعض آداب الزيارة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ والاستئناس هو الاستئذان وجاء فى الحديث «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» رواه البخارى، وجاء أيضا أنه (ﷺ) أجاب على من سأله: أأستأذن على أمى؟ قال (ﷺ): «نعم» رواه مالك ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ تلقوا تحية الإسلام على ساكنيها. ذلك الاستئذان وإلقاء السلام ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فالتزموا بهذه الآداب وهذا الخير ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إياكم ودخول البيوت الخالية من أصحابها إلا أن يأذنوا لكم ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ فالرجوع فى حالة عدم الإذن أطهر لكم ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ المقصود بالبيوت غير المسكونة هى البيوت التى بُنيت للمسافرين بين مكة والمدينة، وبين المدينة والشام، لا يسكنها أحد، ويستريح فيها المسافرون، وبيوت التجارة كالمحلات وأمثالها، وبيوت الراحة، وما إلى ذلك.

* * *

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ قل يا محمد للمؤمنين والمؤمنات أن لا ينظرون بشهوة إلى ما حُرِّم عليهم، ويحفظوا أنفسهم من الزنا ومن مقدماته، والله ﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

* * *

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

وكذلك أمر الشرع المؤمنات أن يخفضن من أبصارهن ولا ينظرن بشهوة إلى ما حُرم عليهن ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى هذه الآية، فمنهم من قال المقصود بما ظهر منها ما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل والخضاب، والقلادة فوق الملابس، والأساور فى نهاية اليد. وقال آخرون ليس المقصود الزينة، وإنما المقصود مواقع الزينة، فعلى سبيل المثال، قال الزمخشرى: [ذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها، وهى الذراع والساق والعضو والعنق والرأس والصدر والأذن]، وقال ابن كثير: [عن ابن عباس قال: وجهها وكفيها والخاتم، وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك]، وكذلك جمع الطبرى عدة أقوال مشابهة، ثم ذكر عن قتادة حديثًا عن النبى (ﷺ) بجواز ظهور نصف الذراع، وعن عائشة قدر قبضة من بعد الكف، ونقل القرطبى ما ذكره الطبرى ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمار هو غطاء الرأس، والمقصود بالجيوب أى فتحات تكشف الصدور أو الظهور، فإذا كان برداء المرأة أىّ من تلك الجيوب، فعليها أن تغطيه بخمارها، أو بأىّ وسيلة أخرى اليوم، ومن باب أولى ألا تجعل لردائها فتحات واسعة تكشف عن الصدور والظهور ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ بعض النساء كن يلبسن الخلخال أو السلاسل فى مؤخرة الساق فإذا ما ضربت الأرض برجلها وربما أحدثت صوتًا، فالله ينهى عن ذلك ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

***

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾

ينظم الإسلام ممارسة الجنس ويهذبها، ولا يمنعها أو يحرمها أو يجعلها مكروهة، ولذلك فهو يشجع ويسهل ويحمى الزواج، و﴿ الأَيَامَى ﴾ عديم الزوج، رجلاً كان أو امرأة، فتأمر

الآية أولى الأمر بأن يساعدوا على زواج الفقراء، والفقراء سيغنيهم الله من فضله، فهو واسع الرزق، عليم بعباده.

* * *

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ فليعف نفسه عن الزنا ومقدماته ﴿ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ الذين ليس لديهم إمكانية الزواج ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ثم تنتقل الآية إلى مسألة العبيد ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ فتأمر كلاً من أولى الأمر ومالكى العبيد أن ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ والمكاتبة هى أن يقبل مالك العبد تحرير عبده مقابل مبلغ من المال يسدده على دفعات يتفقان عليها ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ إن علمتم أنهم يمكنهم الاعتماد على أنفسهم ﴿ وَآتُوهُم ﴾ وأعطوهم من مال الله الذى آتاكم، وذلك أمر إلى أولى الأمر، وإلى أثرياء المجتمع، وإلى مالكى العبيد، والعطاء يعنى المنح[1]، وجاء فى الحديث «ثلاثة حق على الله عونهم:

(١) دائمًا ما يطعن المستشرقون، ومن يرددون أصواتهم، فى الإسلام لقبوله بالرق، ويتغافلون عن أن الإسلام جاء والعالم كله يمارس الرق، بما فيه اليهودية والمسيحية، ولم تأت المسيحية ولا اليهودية بنظام متكامل يجفف منابع الرق كما جاء فى الإسلام. وعلى سبيل المثال، مصادر الرق فى اليهودية: جاء فى سفر التثنية: حين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً، فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدًا لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة من أسلاب فاغنموها لأنفسكم (٢٠: ١٠-١٤)، وعلى سبيل المثال، جاء فى الرسالة إلى مؤمنى أفسس: أيها العبيد، أطيعوا سادتكم البشريين بخوف وارتعاد، من قلب صادق، كمن يطيع المسيح (٦: ٥). وتاريخ استرقاق أوروبا المسيحية، أو ذات الحضارة اليهودية المسيحية كما يقول معظم المفكرين والمؤرخين فى كل من أوروبا وأمريكا، للأفارقة لعدة قرون، وبأعداد تبلغ بضعة عشرات من الملايين، للعمل فى مناجم الفضة والذهب ومزارع القصب والقطن فى العالم الجديد، ينضح بالعقيدة التى قام الاستعباد عليها، وجاء فى كتاب *أصول النطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا*: لقد قنن الدستور (الأمريكى)، مثله مثل الكتاب المقدس، الرق فى وقت من الأوقات، لكن الدستور تغير بحيث أصبح الرق أمرًا غير قانونى (تعديل للدستور عام ١٨٦٥) أما الكتاب المقدس، فقد كان كثير من أصوليى القرن التاسع =

المكاتب يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد فى سبيل الله» رواه الترمذى وعبد الرزاق. ثم تنتقل السورة إلى مسألة أخرى به ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ كان عبد الله بن أبى يملك ست إماء، وكان يكرههن ويدفعهن إلى الزنا ليكسب أجرهن، فاشتكت اثنتان منهما إلى رسول الله (ﷺ)، كذلك كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ليأخذوا أجورهن، فنهوا عن ذلك بنزول الآية ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهو مال الدنيا الفانى ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ جاء فى الحديث «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» رواه ابن ماجه ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أنزلنا من الآيات الواضحات بتحريم الزنا وعاقبته وعاقبة قذف المحصنات، وآداب لباس النساء، وآداب الزيارة ودخول البيوت، وتحريم البغاء ﴿ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وما حدث للأقوام السابقة مع رسلها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

***

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ هى التجويف داخل الجدار الذى يوضع فيه المصباح، وقيل هى الظرف أو الغلاف أو الأنبوبة التى بداخلها الفتيلة التى كانت تضىء بالزيت فى الزمن القديم وزمن التنزيل ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ كوكب مضىء، ودرى تعنى يدرأ، أى يمنع الظلام ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قيل تتعرض للشمس من الشرق ومن الغرب، وقيل لا تنحاز للشرق ولا للغرب ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يكاد زيت شجرة الزيتون المباركة يضىء ولو لم تمسسه نار بسبب نقائه وصفائه.

تعددت تأويلات المفسرين لهذا المثل بدءًا من ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ فمنهم من قال: المقصود نور الله فى قلب المؤمن، ومنهم من قال: المقصود محمد رسول لله (ﷺ)، وآخرون قالوا:

= عشر يستشهدون بفقرات منه بسهولة (التكوين ٩ : ٢٥، الرسالة إلى مؤمنى أفسس (٦ : ٥) للدفاع عن مؤسسة الرق، بل إن المؤتمر المعمدانى الجنوبى (وهى أكبر طائفة پروتستانتية) قد ظهر إلى حيز الوجود عام ١٨٤٥ تأييداً للرق ـ ارجع لشرح الآية ٢٤ من سورة النساء.

إبراهيم (ﷺ)، كذلك قالوا: بل هو القرآن، أو الإيمان والهدى. ونأخذ هنا بما قاله المراغى: [وخلاصة ذلك ما قاله ابن عباس: هذا مثل لنور الله وهداه فى قلب المؤمن، فكما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته ازداء ضوءًا على ضوء، يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه ازداد هدى على هدى، ونورًا على نور]، وقال سيد قطب: [وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود؛ ويرسم النموذج المصغر الذى يتأمله الحس، حين يقصر عن تملى الأصل. وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشرى الحسير.

ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة. وهى الكوة الصغيرة فى الجدار، يوضع فيها المصباح، فتحصر نوره وتجمعه، فيبدو قويًا متألقًا: «كمشكاة فيها مصباح».. «المصباح فى زجاجة».. تقيه الريح، وتصفى نوره، فيتألق ويزداد.. «الزجاجة كأنها كوكب درى».. فهى بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة.. هنا يصل بين المثل والحقيقة. بين النموذج والأصل حين يرتقى من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كى لا ينحصر التأمل فى النموذج الصغير، الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير.. وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج. إلى المصباح:

«يوقد من شجرة مباركة زيتونة» ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون. ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل، إنما هو كذلك الظلال المقدسة التى تلقيها الشجرة المباركة. ظلال الوادى المقدس فى الطور، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب. وفى القرآن إشارة لها وظلال حولها: «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» وهى شجرة معمرة، وكل ما فيها مما ينفع الناس... زيتها وخشبها وورقها وثمرها.. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير، فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزة إلى مكان أو جهة، إنما هى مثل مجرد للتقريب، «لا شرقية ولا غربية».. وزيتها ليس زيتً من هذا المشهود المحدود، إنما هو زيت آخر عجيب: يكاد زيتها يضىء بغير احتراق؛ «ولو لم تمسسه نار».. «نور على نور».. وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق فى نهاية المطاف!

إنه نور الله الذى أشرقت به الظلمات فى السماوات والأرض، النور الذى لا ندرك كنهه ولا مداه، إنما هى محاولة لوصل القلوب به، والتطلع إلى رؤياه: «يهدى الله لنوره من يشاء».. ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه، فهو شائع فى السماوات والأرض، فائض فى

السماوات والأرض، دائم فى السموات والأرض. لا ينقطع، ولا يحتبس، ولا يخبو. فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه، وحيثما اتصل به وجد الله. إنما المثل الذى ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك، وهو العليم بطاقة البشر:

«ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شىء عليم».

ذلك النور الطليق، الشائع فى السموات والأرض، الفائض فى السماوات والأرض، يتجلى ويتبلور فى بيوت الله التى تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة].

***

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ بيوت الله فى الأرض المساجد ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ سمح الله ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أن تبنى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فى الآذان وفى الصلاة وفى تلاوة القرآن ودراسته، يسبح فيها ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالآصَالِ﴾ آخر اليوم؛ رجال ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ﴾ أى لا تستغرقهم وتشغلهم شئونهم المختلفة عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنهم يخشون يوم الحساب، يوم تتقلب القلوب والأبصار من هول الموقف، يدرك هؤلاء الأتقياء أنهم خلقوا لعبادة الله بتحمل أمانة الخلافة على الأرض، وسيجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

***

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىَ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾

أما الذين كفروا فأعمالهم كسراب يحسبه الظمآن منهم لمتع الدنيا ماءً فى القاع المنبسط من الأرض، كلما سعى إليه بعد عنه، فجدد سعيه، وهكذا من يسعى وراء أهوائه لا يرضى ولا يقنع، حتى يلقى حتفه فيجد حساب الله فى انتظاره، أو أعمالهم كظلمات فى بحر عميق، يعلوها موج من فوقه موج من فوقه سحاب، لا يكاد يرى يده من الظلام. قال المراغى: [قال الحسن: الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وقال ابن عباس: هى ظلمة قلبه وبصره وسمعه]، وقال زغلول النجار: [بالإضافة إلى تحليل الضوء الأبيض عند مروره فى ماء البحار والمحيطات، فإن السبب الرئيسى فى إحداث الإظلام التام فوق قيعان البحار اللجية (أى الغزيرة الماء لعمقها حتى لا يكاد يدرك لها قاع، والمتلاطمة الأمواج لقول العرب: التج البحر، أى تلاطمت أمواجه) هى الأمواج الداخلية فى تلك البحار العميقة وغير المتجانسة. وتتكون هذه الأمواج الداخلية بين كتل الماء ذات الكثافات المختلفة، وتخلتف كثافة الماء فى البحار العميقة والمحيطات باختلاف كل من درجة حرارته، ونسبة الأملاح المذابة فيه، وتتمايز كتل الماء فى تلك المسطحات المائية الكبيرة أفقيا بتمايز كثافتها. وتتحرك التيارات المائية أفقيا بين مساحات شاسعة من خطوط العرض فتكتسب صفات طبيعية جديدة من درجات الحرارة والملوحة بسبب تغير معدلات التسخين أو التبريد، ومعدلات البخرأو سقوط الأمطار، مما يضطرها إلى التحرك رأسيا كذلك.

وتمايز الماء فى البحار العميقة والمحيطات إلى كتل سطحية، وكتل متوسطة، وكتل شبه قطبية، وكتل حول قطبية، ولا يتمايز الماء إلى تلك الكتل إلا فى البحار شديدة العمق، ومن هنا فإن الأمواج الداخلية لا تتكون إلا فى مثل تلك البحار العميقة، ومن هنا أيضا كان التحديد القرآنى بالوصف بحر لجى إعجازا غير مسبوق. وتتكون الأمواج الداخلية عند الحدود الفاصلة بين كل كتلتين مائيتين مختلفتين فى الكثافة، وهى أمواج ذات أطوال وارتفاعات تفوق أطوال وارتفاعات الأمواج السطحية بمعدلات كبيرة، حيث تتراوح أطوالها بين عشرات ومئات الكيلومترات، وتصل سعتها (أى ارتفاع الموجة) إلى مائتى متر، وتتحرك بسرعات تتراوح بين ٥ و ١٠٠ سنتيمتر فى الثانية لمدد تتراوح بين أربع دقائق وخمس وعشرين ساعة، وعلى الرغم من ذلك فهى أمواج لا يمكن رؤيتها بطريقة مباشرة، وإن أمكن إدراك حركتها بأجهزة ميكانيكية وذلك بواسطة عدد من القياسات للاضطرابات التى تحدثها تلك الأمواج الداخلية، وهذا أيضا مما يجعل الإشارة القرآنية إليها إعجازا لا ينكره إلا جاحد.

كذلك يبدأ تكون الأمواج الداخلية على عمق ٤٠ مترا تقريبا من مستوى سطح الماء فى المحيطات، حيث تبدأ صفات الماء فجأة فى التغير من حيث كثافتها ودرجة حرارتها، وقد تتكرر على أعماق أخرى كلما تكرر التباين بين كتل الماء فى الكثافة.

وعجز الإنسان فى زمن الوحى ولقرون متطاولة من بعده عن الغوص إلى هذا العمق الذى يحتاج إلى أجهزة مساعدة خاصة، مما يقطع بإعجاز علمى فى هذه الآية الكريمة بإشارتها إلى تلك الأمواج الداخلية، وهى أمواج لم يدركها الإنسان إلا فى مطلع القرن العشرين (سنة ١٩٠٤م).

ومن فوق هذه الأمواج الداخلية، تأتى الأمواج السطحية وما يصاحبها من العواصف البحرية والتى يحركها كل من الرياح والجاذبية والهزات الأرضية، ودوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، وحركات المد والجزر الناتجة عن جاذبية كل من الشمس والقمر، وغير ذلك من العوامل المعروفة وغير المعروفة، وهذه الأمواج السطحية هى أحد العوائق أمام مرور كل أشعة الشمس الساقطة على أسطح البحار والمحيطات فى مائها والوصول إلى تحلل تلك الأشعة إلى أطيافها وامتصاصها بالتدريج فى الماء.

ومن فوق هذه الأمواج السطحية تأتى السحب التى تمتص وتشتت وترد إلى صفحة السماء حوالى ٤٩٪ من مجموع أشعة الشمس الواصلة إلى نطاق التغييرات المناخية، فتحدث قدرا من الظلمة النسبية التى تحتاجها الحياة على سطح الأرض.

فسبحان الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور: ٤٠]].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِن السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) ﴾

ألم تعلم يا محمد، ومن معك من المؤمنين، وكل السامعين، أن كل ما فى السموات والأرض يسبح لله، وكلٌّ قد عرف كيف يقوم بذلك ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ألم تعلم يا محمد ومن معك من المؤمنين وكل السامعين أن الله يدفع السحاب ويجمعه على بعضه البعض، فترى ﴿ الْوَدْقَ ﴾ المطر يسقط من خلاله إلى الأرض، وأحيانًا يتجمع السحاب ليصبح فى السماء بحجم الجبال فى الأرض، ومن جبال السحاب تلك يُنزل الله بردًا على من يشاء ويصرفه عمن يشاء، يكاد ﴿ سَنَا ﴾ ضوء برقه يخطف الأبصار ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يوالى الله الليل بالنهار بعد النهار بعد الليل، وقيل يطيل فى أحدهما على حساب الآخر، ثم يعكس المسألة، وتتم الدورة مرة كل عام.

***

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

انظر أيها الإنسان وتدبر قدرة الله الذى ﴿ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ فالماء مكون أساسى فى كل الدواب، وتتوالد من النطف، التى هى نوع من الماء ـ وجاء فى سورة الطارق ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) ﴾ ـ ثم نوع الله فى مخلوقاته ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ كالزواحف ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالماشية ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

***

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) ﴾

يزعم المنافقون الإيمان والطاعة، ثم يفعلون عكس ما يقولون ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ رفض فريق منهم، إلا إذا كان يعرف أن الحق فى جانبه، ذهب إلى الرسول (ﷺ) مذعنًا مطيعًا، أفى قلوبهم مرض كراهية الحق؟ ﴿ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أم أن أولئك المعرضين شكوا في محمد، أم خافوا أن يظلمهم الله ورسوله، فكيف يكون ذلك بعد أن قالوا ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾؟ لا يفعل ذلك إلا القوم الظالمون.

* * *

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

إنما المؤمنون المفلحون الفائزون هم الذين يقولون سمعًا وطاعةً لحكم الله ورسوله ويتقون الله في كل أمورهم. وأقسم الظالمون لك أبلغ الأيمان بأنهم سيخرجون معك للقتال إن أمرتهم، قل لهم لا حاجة لكم إلى القسم، ولكن إلى الطاعة كما يعرفها ويمارسها المؤمنون ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن أعرضوا، فكلٌّ عليه مسئولية عمله ـ وذلك كقوله تعالى ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٥٢] ـ ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ إن أطعتموه اهتديتم إلى صراط الله المستقيم ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾.

* * *

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

قال محمد الغزالي: [الحرب من قديم ناشبة بين فريقين: فريق ضائق بالدين كله، يحتال لإسقاط رايته وإحباط غايته، وفريق يربط الناس بربهم، ويشد أرجاء المجتمع بشعب الإسلام كلها، وحالة المسلمين في هذا العصر (عصر محمد الغزالي، أي أواخر القرن الرابع عشر الهجري ومطلع الخامس عشر، أي النصف الثاني من القرن العشرين) رديئة، والهزائم المادية والمعنوية تحيط بهم، ولكن الله فتح أمامهم أبواب الآمال حين قال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ هذا هو وعد الله الحق، فلا تيئسوا، فسيكون المؤمنون خلفاء لمن سبقوهم، وارثين لهم في الحكم والولاية على الأرض ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الأمم السابقة عليهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ على أن هذا التمكين يحتاج إلى مقدمات طويلة، وجهود موصولة، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لابد من تحصيلها ويستحيل أن يتحقق لعاطل أمل] ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ سيتبدل الخوف من أعداء الإسلام إلى أمن وطمأنينة ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هذا التوحيد الخالص جزاؤه النصر المبين. . أما إذا ما انتكس الإنسان وكفر بربه بعد هذا الوعد الحق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم يجيء أمر الله المؤمنين بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة وإطاعة الرسول، فتلك هي الوسائل الإلهية لتهذيب النفوس وإصلاحها، وإعدادها لحمل أمانة تكليف الخلافة، والفوز بالدنيا والآخرة، ورحمة الله ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ ولا تحسبن يا محمد، والخطاب لأمته، أن الذين كفروا سيعجزون الله في الأرض ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)﴾

أكبر الإسلام حرمة البيوت والعائلات، فوضع نظامًا وآدابًا للزيارة، وها هو هنا يضع نظام الاستئذان داخل العائلة الواحدة، والعلة فيه ألا يطلع أحد على عورات أحد، وكان ذلك وقت التنزيل ـ قبل صلاة الفجر، ووقت الراحة عند الظهيرة، وقبل النوم مساءًا. فعلى أهل البيوت من الأطفال، وما ملكت الأيمان أن يستئذنوا فيها. والعلة عدم الإطلاع على العورات، فكل ما يؤدى لذلك، يُمنع ويستلزم الاستئذان قبله.

***

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ هن الطاعنات فى السن، واللاتى قعدن عن الحيض والإنجاب لكبرهن ﴿ اللاَّتِى لا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ اللاتى لا يطمعن فى الزواج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ لا حرج عليهن ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ يتخففن من ثيابهن فلا تُحكم الخمار، وربما ظهر جزء من ذراعيها، ولكن غير متبرجة أى غير مظهرة لزينتها، وأن تعف نفسها عن التخفف، فذلك أفضل لها، والله عليم بالنوايا، سميع بكل ما يدور.

***

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾

قال سيد قطب: [روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة ـ دون استئذان ـ ويستصحبون معهم العمى والعرج والمرضى ليطعموهم.. الفقراء منهم.. فتحرجوا أن يطعموا وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن. ذلك حين نزلت: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» فقد كانت حساسيتهم مرهفة. فكانوا يحذرون دائمًا أن يقعوا فيما نهى الله عنه، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد. فأنزل الله هذه الآية، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج، وعن القريب أن يأكل من بيت قريبه. وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج. وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به. استنادًا إلى القواعد العامة فى أنه «لاضرر ولا ضرار» وإلى أنه «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس» رواه الشافعى.

ولأن الآية آية تشريع، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظى والترتيب الموضوعى، والصياغة التى لا تدع مجالاً للشك والغموض. كما نلمح فيها ترتيب القرابات.. ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف، ولا يزيد على حاجة طعامه. ويلحق بها بيوت الأصدقاء. ليلحق صلتهم بصلة القرابة. عند عدم التأذى والضرر. فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان. فإذا انتهى من بيان البيوت التى يجوز الأكل منها، بين الحالة التى يجوز عليها الأكل: «ليس عليكم جناح أن تأكلوا

جميعًا أو أشتاتًا» فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعامًا على انفراد، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام! فرفع الله هذا الحرج المتكلف، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد، وأباح أن يأكلوا أفرادًا أو جماعات.

فإذا انتهى من بيان الحالة التى يكون عليها الأكل، ذكر آداب دخول البيوت التى يؤكل فيها: «فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة».. وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين فى الآية. فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه. والتحية التى يلقيها عليه هى تحية من عند الله. تحمل ذلك الروح، وتفوح بذلك العطر. وتربط بينهم بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها.

وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم فى الصغيرة والكبيرة:

«كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون».. وتدركون ما فى المنهج الإلهى من حكمة ومن تقدير»].

***

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾

إنما المؤمنون، الذين ءامنوا بالله ورسوله حقّا هم الذين ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ والأمر الجامع هو الخطب الجلل، مثل التشاور فى أمر هام أو الاستعداد لمقاتلة العدو ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أستأذنوه قبل الانصراف، وقيل إن هذه الآية نزلت فى حفر الخندق، وكان قوم من المنافقين يتسللون بغير إذن، وأمر الله رسوله أن يأذن لمن رأى فيه حاجة للذهاب، وأن يستغفر لهؤلاء وهؤلاء؛ فإن الله غفور رحيم.

***

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

لا تجعلوا نداء الرسول لكم كندائكم بعضكم لبعض، والله يعلم من يتسلل منكم، أثناء حفر الخندق للدفاع عن المدينة ضد الأحزاب، أو عمومًا من يتسلل مخالفة لرسول الله أثناء حياته، ويتسلل من اتباع سنته بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، وليحذر من يخالفه، فى حياته أو بعد مماته، من فتنة تصيبه على ذلك، إلا أن يتوب وينوب، أو عذاب أليم إذا كان ذلك قد حق عليه، واعلموا جميعًا ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ البركة هى كثرة الخير وزيادته، فالمعنى تكاثر خيره وزاد، أى حلت بركته على البشر ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ مصدر فرق بين شيئين، وسمى به القرآن، أو الرسالة الخاتمة كلها، على عبده محمد، لأنه ولأنها فرقت بين الحق والباطل، مالك السماوات والأرض، الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ شريكا، خلق الأكوان، وخلق كل مخلوق بخصائصه، وأحياه وفقًا لقدر زمانى ومكانى، حتى ينشر عبيده ليوم الحساب، واتخذ المشركون آلهة مخلوقة، لا تملك من أمرها شيئًا ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي

(*) إلا الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنية.

الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾

رفض الكافرون رسالة محمد (ﷺ)، ولم يكتفوا برفضهم، بل شنوا عليه حربًا فكرية استخدموا فيها كل ما أوتوا من قدرات ومواهب، واستعانوا بشياطين الإنس والجن ـ كما قالت آية الأنعام ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [١٢١] ـ فقالوا إن القرآن كذب افتراه محمد، الذى كانوا يسمونه الأمين والذى خبروا صدقه بضعة عقود، وأعانه عليه قوم آخرون، من أهل الكتاب من أمثال عداس ويسار، فما القرآن إلا ظلم وزور. وتغافلوا أن لو كان القرآن من عند عداس أو يسار أو غيرهما لقال ذلك ولاستطاع التحكم فى محمد (ﷺ) وفى دعوته، وقال الكافرون إنما القرآن أساطير الأولين، يمليها بعض أهل الكتاب على محمد أول النهار وآخره، وتغافلوا عن العقيدة النقية الصافية التى أتى بها القرآن لتخالف ما تراكم فى تراث العرب وتقاليد أهل الكتاب عن الله وأمور الدنيا والآخرة، وتغافلوا عن الشريعة السمحاء التى أتى بها القرآن للمساواة بين كل البشر تحت إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، قيوم السماوات والأرض، يرزق كل دابة، وبيده أجل كل مخلوق، وبيده الهداية وبيده العزة، يقول لهم ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا شعب مختار وشعوب مستبعدة، ولا تفاخر بالأنساب، يبعث البشر ليحاسبهم يوم القيامة الذى يضع له الموازين الحق ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]، ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥] وقالوا مال هذا الرسول بشر مثلنا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟ لماذا لم ينزل الله معه ملكا ينذرنا؟ ولماذا لا يُلقى الله كنزًا له أو يجعل له جنة من المزروعات؟ ثم قالوا للمسلمين إنكم لا تتبعون إلا رجلاً مسحورا. فكأن الكافرين يريدون أن يفرضوا على خالقهم ماذا يفعل وكيف يهديهم، ثم يفتروا الكذب الواضح على محمد (ﷺ) ويقولوا إنه ﴿ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ فترد عليهم الآية قائلة لمحمد ومن اتبعه من المسلمين ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾.

***

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾

تبارك الله الذى إن أراد جعل لك فى الدنيا خيراً مما اقترحوا ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ وحقيقة الأمر أنهم ﴿ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ فهم يريدون أن يحكموا حسب أهوائهم، ولا يريدون إلهًا يحاسبهم على ما يفعلون، ويملى عليهم ماذا يفعلون وماذا لا يفعلون، ولقد أعد الله للمكذبين بالساعة ﴿ سَعِيرًا ﴾ نارًا شديدة الاستعار إذا رأت الكفار من بعيد سمعوا لها صوتا متغيظًا مرعبًا متحفزاً لإلتقامهم ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ وإذا ألقتهم الملائكة فى مكان ضيق يتناسب وإجرامهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ مقرونة أيديهم وأعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ نادوا وصاحوا واهلاكاه؛ فتقول لهم الملائكة ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾.

***

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾

قل يا محمد للمشركين ﴿ أَذَٰلِكَ ﴾ المصير المؤلم ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ التى قد وعدها الله المتقين جزاءًا وثوابًا ﴿ وَمَصِيرًا ﴾ ينعمون فيه ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) ﴾ ثم أنذرهم ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيسألهم قائلاً ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ تبرأت الملائكة، وتبرأ عزير، وتبرأ عيسى (عليه السلام) كذلك تبرأ كل الصالحين ممن عبدوهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قالوا ليس لنا أن نعبد أحداً غيرك، فإذا عبدناك ودعونا الناس لعبادتك كيف يزعم أولئك المشركين أننا دعوناهم لعبادتنا؟ بل نسوا ما خلقوا له، بدلاً من أن يحمدوا ربهم ويشكروه ويعبدوه حق عبادته على نعمه ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ يستحقون الهلاك. ترد

الآية على المشركين ها قد ﴿ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ فاليوم لا ﴿ تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ﴾ أى دفعًا للعذاب النازل بكم ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ لا يوجد من ينصركم ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ بأن يشرك بالله، فليذق العذاب الاليم.

* * *

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وإذا كان جدال المشركين ورفضهم لك ولرسالتك لأنك تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق، فهذه سنة الله فى جميع الأنبياء والمرسلين ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ جعلنا المرسلين مختبرين بالمرسل إليهم والعكس ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ على الاختبار ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ فلا تحزن لأن الله معك يسمع ويرى.

* * *